الشعر والموسيقا

يمتاز الشعر عن غيره من فنون الأدب بما فيه من موسيقا ، كما يميزه ذلك النغم المنبعث من القافية الرتيبة التي تتكرر من بيت لآخر في القصيدة الواحدة – وفقا لنمط الشعر القديم – كما توجد بصفة غير متواترة في نمط الشعر الجديد ، وقد لا توجد القافية ، لكن تظل الموسيقا شائعة منتشرة داخل القصيدة يمثلها البحر الشعري أو التفعيلة .

و لأن الموسيقا عنصر رئيس مهم في الشعر فقد حرص عليه الشعراء في قصائدهم ، وتحدث ، واستفاض فيه علماء البلاغة والنقاد على مر العصور ، وما يزالون ، وقد قيل : " الشعر موسيقا ذات أفكار" وفي تعريف قدامة من جعفر للشعر أنه كلام موزون مقفى له معنى"ما يبرز أهمية الموسيقا واعتماد الشعر عليها فهي ليست مجرد حلية يمكن الاستغناء عنها وإنما هي عنصر لا يتم الشعر إلا به ولا تقوم القصيدة إلا عليه .

والموسيقا تجسيد للعواطف ، وليست مجرد تتابع التفعيلات بما فيها من ساكن ومتحرك وهي صدى العواطف المستترة والانفعالات المختفية في أعماق النفس البشرية بما فيها من فرح وتفاؤل وحزم وتشاؤم .

وموسيقا الشعر نوعان :

- خارجية تتمثل في وحدة الوزن والقافية ، وهي بمثابة الإطار الخارجي الذي يحدد شكل القصيدة ، ومن هنا تبرز دقة الشاعر في اختيار البحر الذي ينظم

عليه أبياته ، كما يدقق في اختيار القافية ، وحرف الرويّ الذي ينسجم وموضوع الأبيات .

ويرى بعض النقاد أن هناك بحورًا تتناسب مع الأغراض ، فالوصف مثلاً يناسبه البحور كثيرة التفعيلات كالطويل والبسيط والمديد والكامل لأن كثرة التفعيلات تعطى الشاعر فضاء واسعا لإفراغ تجربته ، واستيعاب جوانبها ، ولست مع هؤلاء لأن الشاعر أدرى بما يناسب تجربته من بحور الشعر ليصوغ عليها ما يريد من أبيات ومثل هذا التحديد يقيد الشاعر الذي لا يحسن العمل إلا في جو من الحرية والانطلاق ، لأنه كالبليل لا يحسن التغريد إلا وهو طليق .

أما ما يتعلق بالعروض والقافية فعلماء البلاغة والنقاد متفقون على أن معرفتهما لا تخلق شاعرًا وليسا ضروريين لمن حباه الله الموهبة ، ورُزق الإبداع "وليست الضرورة داعية إليهما ، لسهولة وجودهما في طباع أكثر الناس من غير تعلم "[1] لأن إبداع الشعر ونظمه قائم أساسًا على الذوق ، ورقة الطبع وما لدى الشاعر من موهبة واقتدار " بيد أنهم استشعارًا منهم بأن الذوق قد يضطرب أحيانا وقد ينبو عن بعض الزحافات والعلل والرخص العروضية ، وقد يقع في بعض عيوب القافية ومحظوراتها ، لم يروا بأسًا في أن يحتاط الشاعر لهذه الأمور بمعرفة علمي العروض والقافية ليكونا – كما قرروا – معيار الشعر وميزانه اللذين يفرقون بهما بين ما يجوز من ذلك وما لا يجوز " [2] ويكونون كذلك علم ودراية " بالحروف

١- نقد الشعر ، قدامة بن جعفر ص ١٣ .

٢- راجع مجلة فصول المجلد السادس ، الإطار الشعرى وفلسفته في النقد العربي القديم ، يوسف بكار ص ٦٢

والحركات التي يلزم إعادتها ، وما يصح أن يكون رويًّا أو ردفًا مما لا يصح "[1] ومن الخير للشاعر أن يجمع إلى جانب الموهبة والمقدرة دراسة علمي العروض والقافية لزيادة مقدرته وتمكنه وهيمنته على القصيدة .

وكما تختلف النغمة من آلة إلى أخرى كذلك تختلف النغمة من قصيدة لأخرى خاصة إذا تناول شاعران مختلفان موضوعًا واحدًا ، سيبرز اختلاف الموسيقا والنغمة عند كل من الشاعرين .

لقد استطاع البارودي ومن جاء بعده من الشعراء كحافظ وشوقي أن يعيدوا للشعر العربي رونقه وبهاءه في اللفظ والمعنى والصياغة ، والإطار الموسيقى المحافظ على وحدة الوزن والقافية ، ثم كان ظهور التيار الرومانسيّ ممثلاً في مدرستي الديوان ، و أبوللو وقد سار شعراء المدرستين على نسق المحافظة على البحر الشعريّ ، و أدخلوا تنويع القافية بين مقاطع القصيدة ، إذ جعلوا كل مقطع في القصيدة يختلف عن سابقه ، واستمع إلى إبراهيم ناجي يقول في قصيدة انتظار : [2]

أنا في بعدك مفقود الهدى ضائع أهفو إلى نور كريم

أشترى الأحلام في سوق المنى و أبيع العمر في سوق الهموم

لا تقل لي في غد موعدنا فالغد الموعود نـاءٍ كالنجوم

* * * * *

١- سر الفصاحة لأبن سنان الخفاجي ص ٣٤٢ .
٢- الأعمال الكاملة ، إبراهيم ناجي ، دار العودة ، بيروت لبنان .

أغدا قلــت فعلمنـــى اصـــطيارا ليتنى أختصر العمر اختـــصارا

عبرت بـــي نـــشوة مـــن فـــرح فرقصنا أنـــا والقلـــب ســـكارى

وعرانـــا طـــائف مـــن خبـــل فاندفعنا فـــي الأمـــاني نتبـــارى

ومع ظهور الشعر الحر، والمدرسة الواقعية تغير شكل القصيدة، فلم تعد تعتمد على النمط الشعري القديم المتمثل في نظام البيت بشطريه، وصار نظام التفعيلة هو السائد، واستخدموا نظام السطر الشعري دون التقيد بعدد معين من التفعيلات داخل السطر الشعرى، فقد يضم السطر تفعيلة واحدة، وقد يكون فيه عدة تفعيلات وانظر إلى قول صلاح عبد الصبور: [1]

ونزلنا نحن السوق أنا والشيخ

كان الإنسان الأفعى يجهد أن يلتف على الإنسان الكركي

فمشى من بينهما الإنسان الثعلب

عجبا ..

زور الإنسان الكركي في فك الإنسان الثعلب

نزل السوق الإنسان الكلب

كي يفقأ عين الإنسان الأفعى

١- الأعمال الكاملة، صلاح عبد الصبور، دار العودة، بيروت، لبنان.

" وقصارى ما يمكن أن نسلم به هو أن الشعراء أحسوا بوطأة الموسيقا الشعرية القديمة على أنفسهم ، أحسوا أن مشاعرهم ووجداناتهم لا يمكن حصرها في تلك البحور العروضية المرصودة ، وكل مشتقاتها ، وأنهم في حاجة ، كيما يعبروا عن الموسيقا التي تنغمها مشاعرهم المختلفة ، إلى شيء من التعديل في الفلسفة الجمالية التي تسند تلك القوالب الموسيقية القديمة " [1] ومعنى ذلك أن الشعراء قد خرجوا على النمط المألوف في بنية القصيدة ، والتشكيل الموسيقيّ " فصارت القصيدة الجديدة نسقًا موسيقيا ، بالغ الحساسية ، بالغ الصعوبة ، فكل حركة فيها بميزان دقيق ، وكل حركة ترتبط إيقاعيا مع سائر الحركات ارتباطًا نغميًا لا يحكمه سوى الحالة الشعورية التي يخضع لها الشاعر.

أما الوقفات (التي نسميها قوافي) فاختيار أماكنها واختيار أنسب الأصوات إيقاعيا لها أمر بالغ الخطورة ، ويحتاج في الشاعر إلى أصالة واقتدار " [2]

١- الشعر العربي المعاصر ، د . عز الدين اسماعيل ص ٦٠ .
٢- نفسه ص ٦٨ .